سطوة الاديان

على حرية الفكر

كتبتم فصلا فى مجلتكم الممتعة تحت هذا العنوان رداً على مقال كتبته فى جريدة الأهرام تحت عنوان (سطوة الالحاد على الأديان) قلتم فيه :

« لاأعرف كيف يجوز لعالم مثل ... أن يكتب هذا المقال وتحت هذا العنوان . فاذا فرض وسلمنا بأن للالحاد فى هذه العصر سطوة على الأديان ، فلماذا لايتذكر ما كان من سطوة الأديان على حرية الفكر ، وعلى العقول تغلها وتصدها عن مسايرة متجهاتها الطبيعية خلال كل العصور »

وأنا من ناحيتى لا أعرف كيف يجوز لقادة نبيه مثلكم أن يأخذ على مثل هذا الاغفال وقد قلت فى ذلك المقال نفسه عن سطوة رجال الدين على حرية الفكر :

« فنشبت بين الالحاد والدين من ذلك الحين (القرن السادس عشر) معركة فاصلة لاتزال رحاها دائرة استخدم فيها رجال الدين فى أول عهدهم بها ما كان لهم من سلطان على الحكومات والعامة فأسرفوا فى البطش بخصومهم لابقوة الدليل ولكن بقوة الحديد والنار ، فكان ذلك شراً عليهم من جميع العوامل الموجهة اليهم »

أظن أننى بهذه العبارة قد وفيت بما يجب على فى هذا المقام وقد تبسطت فى بيان هذه الاضطهادات فى أكثر من واحد من مؤلفاتى .

أما ماتقدتموه من قولى (سطوة الالحاد على الأديان) فلا أراه سديداً ، فان التعاليم تتنازع البقاء كالأحياء التى فى بيئة واحدة ويبقى منها الأقوى . ولايشترط أن يكون الأقوى هو الأكمل ، فقد يقوى الظلم على العدل فى بيئة أو بيئات فيزيل العدل منها ، وقد يقوى الغى على الرشد فيقصيه عنها . ولا ملامة على من يخبر عن ذلك بقوله سطوة الظلم على العدل أو سطوة الغى على الرشد .

قلتم : « كل المبدعات الحديثة يصح أن يقال إن فيها أثراً من الالحاد إذا أخذت على أنها تنافى الأديان أو قواعدها المقررة أو تفسيراتها التى فسرت بها الكتب المقدسة . وليس أمامنا إلا أمرين اثنين أزاء هذا الموقف : فاما أن نقول أن التفسيرات القديمة كانت خطأ ويجب أن توضع تفسيرات أخرى تطابق المبدعات الحديثة ، وعلى ذلك نحكم على كل الأجيال الماضية بأنها فهمت الدين فهماً غير مصيب ، وانها أخذته تقليداً

كما هو الواقع ، وذلك أحط ضروب المعتقد ، وأما أن نقضى بأن الأديان وتفسيراتها أشياء خاضعة لمبدعات العقل، وأن العقل يكونها تكويناً ارضاء لنزعة الاعتقاد الثابتة فى النفس الانسانية . وبذلك تفقد الأديان قدسيتها وغيبيتها ، وتصبح مظهراً نفسياً بسيطاً كأى مظهر آخر من مظاهر النفس الاجتماعية .

هذا ماذكرتموه. أما أنا فلاأعرف أن فى المبدعات الحديثة أدنى شائبة من شوائب الالحاد، أو أقل نزعة من نزعاته ، اللهم إلا إذا كانت تنافى الآداب المقررة، أو تروج الفساد فى الأرض ؛ وهنا يتفق الدين والعلم والفلسفة على مناوأتها ، وتخليص الناس من ويلاتها .

أما قولكم فيما نقلناه عنكم هنا عن هذه المبدعات ومنافاتها لتفسيرات الكتب المقدسة . الخ ، فهذا كلام لايتطبق على الاسلام من أية ناحية من نواحيه . فهو ليس بالدين الذى يجافى العلم أو يحقر من حكم العقل ، والذى يلوح لى أنكم لم تدرسوا هذا الدين دراسة علمية لتقفوا على أصوله ومراميه ، ولو كنتم فعلتم ذلك لرأيتم بأنفسكم عن توجيه ماوجهتموه اليه من الشبهات وعن نشر مانشرتموه لبعض الكتاب فى هذا المعنى فى أجزاء شتى من العصور ، فكنا نقرأ هذه المنابذات مؤملين أن تلوح الفرصة لنلفت نظركم إلى ما فيها من البعد عن الصواب ، حتى لاحت هذه الفرصة فلانتهزها لأبين لكم أصول الاسلام على ما فهمه أهله الأولون ، ودونه أئمته فى مؤلفاتهم الرسمية فى خلال العصور فأقول :

الاسلام لايتقيد بتفسيرات أحد كائناً من كان . فاذا ثبت بطلان قول من الأقوال وأفن رأى من الآراء ، وجب على كل مسلم لفظه ، سواء أكان من أقوال الأولين أم من آراء الآخرين .

الاسلام ليس فيه تابع ومتبوع ، ولا صاحب رأى ومقلد ، ولكن فيه رجال ذوو عقول يشعرون بتبعات الاعتقاد ، ويطالبون بالدليل على ما يقولون ومايعتقدون .

الاسلام دين العقل والعلم ، فكل ما ترجح بحكم العقل ، وكل مائبت بجهاد العلم، وجب الأخذ به حتى ولو كان مخالفاً لظاهر القرآن والسنة . وقدخلص الأولون من هذا المأزق باللجأ إلى التأويل، وهم ما اضطروا إلى ذلك إلا مدفوعين اليه بالدين نفسه فانه يحتم التعديل على حكم العقل وعلى مايثبت بالحس ، وكيف يمكن ذلك مع وجود نصوص مناقضة له إلا على هذا الأسلوب ؟ وهو أسلوب مشروع فان اللغة العربية مبنية على التشبيهات والاستعارات والمجازات والكنايات فيحمل كل ما يناقض العلم

والعقل على هذه اغصنات البلاغية . وقد جاء فى الكتاب الكريم : « كل شىء هالك الاوجهه » و « يد الله فوق أيديهم » الخ . الخ ، فقال المسلمون الأولون لا يعقل أن يكون لله وجه أو يد أو شىء مما يشبه ماللمخلوقين فيجب تأويل كل ما يشير إلى ذلك من سائر الآيات .

ولما ترجم العرب المؤلفات اليونانية ورجحوا رأى فيثاغورس فى كروية الأرض أولوا جميع الآيات الدالة على أنها منبسطة وهلم جرا

وانى ساجلكم البحث بعد هذه المقدمة فيما قلتموه فى مقالتكم عن المبدعات الحديثة والتفسيرات الدينية فاليكم :

لاأدرى ماذا تقصدون من عبارة (المبدعات الحديثة) فان اردتم بها المخترعات الحديثة ، فان الاسلام يأمر بالأخذ بها والسبق اليها . وقد جرى المسلمون على هذه الطريقة فأخذوا كل ما صادفوه من حسن ونافع فى المدنيات الفارسية واليونانية والرومانية ، ولم يكتفوا بما هو معروض وشائع . ولكنهم بذلوا جهدا جهيداً فى ترجمة ما هو مهجور من كتب الفلاسفة والاطباء والعلماء الأقدمين ، فلم تمض سنوات معدودة حتى ازدهرت المدن الاسلامية بالعلوم والفنون والصنائع ، وزاد فيها علماء المسلمين زيادة قدرها نقدة الاوربيين أحسن تقدير ، ولم يبق أمر هذه النهضة الاسلامية الفخمة خافيا على أحد (راجع مؤلفات دوبرسفال وسديو ودروى وجوستاف لوبون ودرابر وغيرهم فى هذا الباب)

وان كنتم تريدون بالمبدعات الحديثة الآراء العلمية والمذاهب الفلسفية ، فالاسلام لايمنع النظر فى شىء من ذلك ، حتى انه سمح بتعلم السحر والشعوذة . وقد نظر المسلمون الاولون فى جميع الآراء التى صادفوها وترجموها وشرحوها ونشروها فى الآفاق معتبرينها آراء ومذاهب كما هى فى الواقع .

فالاسلام لايحظر شيأ من هذا ، ولكنه يحظر اعتبار الظنيات حقائق ، وبناء قصور من الاوهام والخيالات عليها . وانت خبير أن كل الآراء التى كانت تعتبر فى نظر السابقين من المسلمات العلمية قد أصبحت أثرا بعد عين ، وحل محلها غيرها مما هو أقرب الى المنطق العلمى ، وأقبل للانطباق على أسلوبه . أما ترى آراء انشتين كيف قلبت جميع الآراء التى سلم بها البشر الى اليوم على الزمان والمكان والمادة والجاذبية العامة رأساً على عقب ؟ وقد زاد فقرر عدم وجود الخط المستقيم فى الكون فأصبح علم الكون والكونيات فى نظر العلماء غير ما كان عليه قبل ظهور هذا الرياضى

الكبير . ومن الخرق أن نقول إن مذهب انشتين هو الكلمة الاخيرة للعلم . اذ لابد ن يظهر نوابغ آخرون يرون آراء جديدة تقرب الحقيقة من الاذهان في خلال الوف السنين المقبلة حتى يصل الانسان الى العلم الذى ليس بعده جهل ، ويكون مذهب انشتين بجانبه أشبه بأقاصيص العجائز اليوم .

فالاسلام بازاء هذا الامر الجلل يأمر أهله بالنظر فى كل ما يقال مع التحفظ والاحتياط الجديرين بالمتثبتين من الناس . ومصداق ذلك أن علماء من المسلمين الاولين تكلموا فى تسلسل الاحياء بعضها من بعض ، وهو بعينه نظرية النشوء والارتقاء ، قبل لامارك وداروين باكثر من الف عام (راجع كتاب تنازع العلم والدين تأليف العلامة درابر)

أما ما قاله الاقدمون فالاسلام لا يقيد به احدا من ذويه حتى ولو كانوا من الانبياء والمرسلين ، فقد قال عقب ذكر جماعة منهم : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » فكل مسلم حر فيما يرى ويعتقد وهو وحده مسؤول عن ذلك ومطالب بالدليل عليه ، لاسلطان لأحد على عقله .

تقولون : « إما أن نقول ان التفسيرات كانت خطأ ... وعلى ذلك نحكم على كل الاجيال الماضية بأنها فهمت الدين فهما غير مصيب ، وانها أخذته تقليدا ، كما هو الواقع ، وذلك أحط ضروب المعتقد الخ الخ »

نقول هذا كلام لا يتجه منه الى الاسلام شيء ، فانه لم يجعل للعلم حدا ، بل صرح بان ما لدى النوع البشرى منه نزر لا يعتد به فقال : « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » وان العلم قابل للزيادة على مدى الايام ، ويجب الدؤوب على طلبه : « وقل رب زدنى علما » . والعلم فى مذهب الاسلام هو المستمد من الواقع لا من الظنون والاوهام فقال : « انظروا ما ذا فى السموات والارض » وقال : « قل سيروا فى الارض فانظروا »

وقال فى الزجر عن الاخذ بالظنون والاوهام : « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » وقال : « وما يتبع اكثرهم الا ظنا ، وان الظن لا يغنى من الحق شيأ »

وبناء على هذا فليس للمسلمين تفسيرات قديمة للكون والكونيات تعتبر فى نظرهم مقدسة لا تحتمل الأخذ والرد ، ولم يقم فى هذه الملة من قال أن آراء بعينها أو مذهبا معينا يجب التسليم به تسليما اعمى ، حتى ولا ما ورد من ظاهر الكتاب

والسنة كما اثبتنا لك ذلك فى أول هذه العجالة . فالمسلم مستعد للاخذ بكل مذهب يثبت بالدليل القاطع انه حق ، وله أن يؤول كل ما يخالفه من النصوص الدينية الواردة فيه ، وهو مأمور بذلك ومطالب به ، وقد جرى أهل هذه الملة على هذا النحو من أول وجودهم ، وفى أشد عهود حماستهم الدينية .

وقد ذكرتم (التقليد) ، وقلتم عنه (كما هو الواقع) وأنا أقول لكم إن التقليد حرام على كل مسلم ومسلمة بحكم الدين نفسه ، فلا يجوز لأحد أن يقلد انسانا كائنا من كان ، وانما يجوز له أن يتابعه فى آرائه بعد أن ينظر فى أدلته ، ويقارنها بأدلة غيره ، ويدرك رجاحتها عليها . هذا ما قاله علماء الدين حتى بالنسبة للعبادات والمعاملات . وقد تبرأ واضعوا المذاهب الفقهية ، ابوحنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وداود وغيرهم من الذين يتابعونهم فى آرائهم تقليداً بغير تثبت ، لأن التقليد غير جائز فى الاسلام كما قدمنا .

ثم قلتم : « وإما أن نقضى بأن الأديان وتفسيراتها أشياء خاضعة لمبدعات العقل يكونها تكوينا جديدا كلما شعر بالحاجة الى ذلك ارضاء لنزعة الاعتقاد الثابتة فى النفس وبذلك تفقد الأديان قدسيتها »

هذا الكلام تستدعى المناقشة فيه بياناً وجيزا وهو أن التدين فى مذهب الاسلام فطرة فى النفس البشرية : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

وهذا بعينه هو الذى عبرتم عنه بنزعة الاعتقاد الثابتة فى النفس . بعد أن قرر الاسلام أن التدين على اطلاقه فطرة فى كل نفس بشرية . قرر أن الناس يتفاوتون فى توفية حاجة هذه الفطرة على نسبة تفاوتهم فى القوى العقلية . وتخالفهم فى الدرجات العلمية ، فقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الألباب » وقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون »

وقد رفع الاسلام من قدر العقل حتى جعله أول مخلوق فقد ورد فى الحديث « أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر الخ »

ثم قرر بأنه صاحب السلطان المطلق . وأن له الحكم النافذ فى كل ما يختص بالانسان حتى العقائد . فليس فى الاسلام قاعدة (الدين فوق العقل) إذ ليس على الانسان أن يعتقد ما لا يعقل ، أو ما ليس لديه على صحته دليل : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ومن مقرراته أن الانسان يرتقى فى الدين على قدر ترقيه فى العقل لهذه الاعتبارات كلها لم يقبل الاسلام الايمان التقليدى . وقد قرر ذلك أئمته فى

كتبهم فقالوا : (ايمان المقلد غير مقبول) . فلا بد لكل معتقد من أدلة يبنى عليها اعتقاده بقدر ما يهديه اليه عقله وعلمه . لأن التقليد كما يكون فى الحق يكون فى الباطل ، فكيف يقبله دين أساسه العقل ، وأسلوبه النظر والاستدلال ؟ وهل جاء الاسلام إلا للنعى على المقلدين من أهل الملل ؟ ألم يقل فيهم : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » . وفى آية أخرى : « واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ » وقال : « ائتونى بعلم ان كنتم صادقين » وقال : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون » ـ تخرصون بمعنى تكذبون

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الاسلام دين الفطرة بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة ، وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أى أن المسلم دينه الفطرة المجردة عن التعاليم والموروثات فهى وحدها كافية بما ركب فيها من القوى الى هدايته الى أقوم السبل وأصدق العقائد . وهذه القوى هى العقل ومايقوم عليه من الفكرة والنظر والاستقراء والتحليل والتركيب الخ ، فالمسلم مطالب بأعمال جميع هذه القوى فى حدودها الطبيعية ، والخضوع لأحكامها وتأويل كل كلام مقدس فى سبيل الوقوف معها . وهذا أخص معانى الاسلام وبه مد رواقه على أكثر بلاد المعمورة فى أقل من قرن من الزمان .

قلتم : « إن حرية الفكر قد تناولت فى الماضى الفروع ، أما الآن فانها بدأت تعمل الفأس البائرة فى الاصول ، وهذا مايدعوه وجدى بك سطوة الالحاد على الاديان »

نقول هذا اجمال ندفعه باجمال مثله فاليكم :

ان كل ماتناولته حرية الفكر . وثبت بالدليل القاطع أنه ليس بحق ، فلايجوز أن يقول به مسلم ، لأن دينه يحثه على طلب الحق من كل شىء ، فان ثبت له ان قولا قال به هو فيما مضى : أو قال به ارفع رأس من أسلافه فى خلال العصور باطل وجب عليه الرجوع عنه بحكم الاصول التى يدين بها . وقد سهل الاسلام على الناس مرارة هذا الرجوع فقرر ان للمجتهد أجرا وان أخطأ ، وان للمصيب أجرين . لهذا يحفظ عن جميع أئمة هذه الامة انهم ارتأوا آراء ودافعوا عنها مدة ، ثم رجعوا عنها لقيام الدليل على بطلانها حتى ليكثر فى كتب الفقه قولهم : هذا قول قديم للشافعى ،

وهذا قول جديد لمالك الخ . وقد روى يوماً أكبر المفسرين الاسلاميين فخر الدين الرازى وهو يبكى ، فسئل عن سبب بكائه . فقال : ان رأياً قلت به منذ ثلاثين سنة تبين لى الساعة أننى كنت مخطئاً فيه . ولهذا اعتاد أئمة المسلمين أن يختموا كل رأى لهم بقولهم : (والله أعلم) . ولهذا أيضاً لم يقفلوا باب الاجتهاد فى وجه أحد من المفكرين الى يوم الدين .

فأنا لا أقول أن المسلم لا يخشى حرية الفكر ان تأتى بأصل يسطو على ما عنده فحسب ، ولكن أقول أن دينه يأمره بأن يكون حرا فى تفكيره ، وأن يتوجه مع الدليل حيث اتجه غير هياب ولا وجل .

ومما يؤثر عن هذه الملة و يدل على تأصل هـذا الأصل فى نفوس أبنائها ظهور المذاهب المختلفة ، والآراء المتباينة فى أكبر عهودها عملا بالدين ، ووقوفاً مع تعاليمه . فظهر المعتزلة على اختلاف مذاهبهم ، وظهر بجانبهم كل مايمكن أن يؤدى اليه البحث الحر حتى الاباحية والمعطلة والدهرية ، ولا تزال لهم بقايا الى اليوم .

أما الأصول التى قلتم انه تعمل فيها اليوم الفأس البائرة فلا ندرى ماذا تقصدون منها ؟ فان كان مقصدكم الاعتقاد بالخالق و بالروح والخلود فان العالم العلمى اليوم أصبح يعطف على هذه الأصول بتأثير المذاهب العلمية التى قلبت وجهات النظر رأساً على عقب فى العصر الحاضر . زد على ذلك أن المباحث التى عملت فى الانسان للبحث عن قواه النفسية قد أسفرت عن نتائج مدهشة لطفت من حدة الماديين تلطيفاً عظيما .

فالأصول التى ترون أن الفأس البائرة تعمل فيها اليوم أصبحت ترد تلك الأداة الى رؤوس أصحابها فتحطمها تحطيما . وقد كنت أود أن يكون لدى متسع من الوقت فأطيل فى هذه المباحث ، ولعلكم تعطونى الفرصة لذلك فى أعداد العصور المقبلة .

محمد فريد وجدى